# شعر الخوارج بين تجليات الذات وعذابات الاغتراب

عيسى عيساوي
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي ❖ الجزائر

**ملخص**

نحاول في هذا المقال الكشف عن ظاهرة دلالية بارزة في شعر الخوارج وهي ظاهرة الاغتراب الديني وما تحمله من تجليات الذات الجمعية

وإن رصدنا لتجليات الخطاب الشعري ودلالته، يأخذ مشروعيته انطلاقا من فرضية السياق الأسلوبي للكشف عن بعض المنافذ المغلقة في المنجز الدلالي لحقلين أساسين وهما:

أولا :حقل الذات وتداعياتها في شعر الخوارج: ويفرض حضوره انطلاقا من محمولين وهما:

المحمول اللغوي الوجداني، و المحمول الاجتماعي والمدني.

وثانيا-تجليات الاغتراب في شعر الخوارج لا سيما الاغتراب الديني وأثره في تشكيل النظرية العقدية والسياسية لمذهب الخوارج.

الكلمات المفتاحية: الخوارج، الذات، الاغتراب، النظرية العقدية والسياسية.

**Abstract**

*This article attempts to detect the phenomenon of semantics in the poetry of the religious alienation and collective consciousness of Kharijites. Although it is identified as a manifestation of speech and poetic meaning, it takes its legitimacy from the stylistic context hypothesis to reveal some of the clumsy features with the help of semantics. It reveals two major motives. First, the field of self and its repercussions in the Kharijites poetry as it imposes its presence, namely in the linguistic and emotional aspects. Secondly, it deals with the subdivision in the Kharijites poetry, especially the religious section and its impact on the formation of the ideological, and political theory of the Kharijites doctrine.*

***Keywords**: alienation, Kharijites poetry, semantics,*

**تمهيد**

بقدر ما يتّفق الدارسون على كثرة شعراء الخوارج، غير أنّ ما وصلنا من شعرهم قليل، وعند عرضنا لشعرائهم، فإنّنا نحصي في ديوانهم تسعين شاعرا، واحدا وخمسين بالمائة منهم لم يتجاوزوا القصيدة الواحدة، أمّا بقية أشعار الديوان فجاءت موزعة بين أعلامهم، ومنهم :عبيدة بن هلال اليشكري، وله عشر قصائد، والأعرج المعني وله إحدى عشرة قصيدة، وحبيب بن خدرة الهلالي وله ثلاث عشرة قصيدة، وأشعرهم قطري بن الفجاءة وله سبع عشرة قصيدة، وعمران بن حطّان وله أربعون قصيدة تشكّل مع قصائد قطري عماد ديوان الخوارج، وأمّا الطرماح بن حكيم فله ديوان مطبوع إلاّ أنّ أكثر شعره جاء على غير مذهب الشراة[1].

أمّا الشعر النسائي فمحدود، إذ لم تتجاوز كلّ شاعرة من الثمانية القصيدة الواحدة، سوى أمّ حكيم، التي تركت لنا أرجوزتين بمعدّل خمسة أبيات في كلّ أرجوزة، أمّا السبع الباقيات منهنّ فلم تتجاوز أشعارهنّ حدود بضعة أبيات.

أمّا عن أخبار الشعراء الخوارج وتراجمهم، فإنّ ما وصل إلينا منها، لا يكشف عن مسؤولياتهم باستثناء بعض الأعلام الذين كانوا قادة و ساسة، ومنهم خليفة الخوارج الأوّل عبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير السعدي وشريح بن أوفى العبسي، ومالك بن الوضّاح، ونافع بن الأزرق، وقطري بن الفجاءة، وعبيدة بن هلال اليشكري، وشبيب الأشجعي، والضحّاك بن قيس الشيباني، ورأس الإباضية في أواخر العصر الأموي، عبد الله بن يحي، وجلّ هؤلاء الشعراء كانوا من زعماء الفرق الخارجية.

وإنّ أكثر شعراء الخوارج كانوا من المحاربين، ماعدا عمران بن حطّان الذي تزعّم قعدته الصفرية، وأبي خالد القناني الذي تخلّف عن الخروج خوفا على بناته، وسالم بن أبي الجعد الأشجعي الذي لم يكن من أنصار التعريض بالناس وإرهابهم.

أمّا من حيث النسب فإنّ المصادر التاريخية تجمع على تباين نسبهم، فقد جاؤوا من مختلف القبائل العربية باستثناء قريش، أمّا الموالي منهم فكان عددهم محدودا، ومنهم حبيب بن خدرة من موالي بني هلال، وعمرو بن الحسن الإباضي من موالي الكوفة.[1]

وبرغم هذا التباين في نسب الشعراء الخوارج، و في الانتماء العقدي الطائفي لهم، إلاّ أنّهم لم يثوروا ضدّ بعضهم البعض، وهو ما يفسّر التحامهم حول مبادئ الشراة العامة،[2] أمّا جمهور المتلقّي لرسالة شعرهم فكانوا من الخوارج أنفسهم.

ولعلّ من باب الإنصاف أن نقول أنّ هذه الخوالج والمشاعر العقدية، المنبثقة من شعرهم لم تولد من العدم، وإنّما كانت نتاج قسوة الحكّام الأمويين، ورأي الخوارج فيهم أنّهم استأثروا بالفيء، وهو ما يؤكد ارتباط مذهبهم بالواقع السياسي الجديد، وهو واقع ينطلق من احتكار الخوارج للدين .ولم تجد محاولات بني أميّة مع حاملي لواء الثورة من الخوارج نفعا في دفعهم إلى المهادنة، ومحاربة العنف، فلم يستسلموا واستنكروا خضوعهم للسلطة الأموية بل أعلنوا الانتقام لضحايا النهراوان وللعنف الأموي.

لهذه الأسباب التاريخية والمذهبية جاء المشهد الإبداعي لشعراء الخوارج صورة محاكية لبطولاتهم وانتصاراتهم الحربية إذ كانوا يؤمنون بقداسة الحرب المعلنة ضد الأمويين كونها تؤسّس لإقامة حكم الله، وهو ما جعلهم يتهافتون على الموت بكلّ حبّ وشغف.

وبرغم هذه اللحمة المتينة فيما بينهم، ووحدة مشاعرهم، إلاّ أنّهم واجهوا صراعات داخلية، فتفشّت الخلافات فيما بين الجماعات والفرق بسبب تباينهم في المبدأ والرأي، فتباينت آراؤهم واختلفت ممّا أدّى إلى انقسامهم إلى فرق، في الوقت الذي كانوا يخوضون فيه المعارك، وهو ما أدّى إلى عدم تحقيق النصر في كثير من معاركهم وإن كان شعارهم فيها "لا حكم إلاّ لله "، وهو المضمون السياسي والعملي للخوارج، والذي ترجم فيما بعد إلى شعار "الأمر شورى والبيعة لله عزّ وجلّ والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر" ثمّ إلى مبدأ "الخلافة لكلّ مسلم عادل" وهو المضمون الذي أحدث نوعا من التعالي بالسياسة[3]، وهو ما عبّر عنه الجابري[4] بمسألة الحكم من إطار القبيلة إلى مستوى العقيدة، هذا المضمون السياسي الجديد، طرح إشكاليات عقدية لم تكن موجودة من قبل، ومنها إشكالية الكفر والإيمان، والجنّة والنّار حسب النظرية العقدية الخارجية.

ولم يقف أثر هذه النظرية على الجانب العقدي فقط بل أثّر على الجانب السياسي بما في ذلك الضغط العسكري على الدولة الأموية من قبل الطوائف الخارجية، ما جعل الخلافة تلجأ كراهية إلى المهادنة، يقول صاحب نقد العقل العربي: (وهذه مسألة يجب أن نوليها كامل الاعتبار، فالليبرالية النسبية التي طبعت سلوك الخلفاء الأمويين، على الصعيدين الفكري والديني والسياسي، لم تكن راجعة فقط إلى الاختيار السياسي الذي دشّن بها معاوية عهده، بل إنّها كانت أيضا من أجل حصر حركة الخوارج في إطارها الضيّق سواء على صعيد القبيلة أو على مستوى العقيدة)[5].

وما نستشفّه من هذا المقول، أنّ الدولة الأموية لجأت إلى سياسة المهادنة والمصالحة محاولة منها لتحييد النخبة من رجال الدين والفكر، وبالتالي عدم انخراطهم في الثورة الخارجية التي يعدّها المؤرخون مؤشرا تاريخيا على نهاية الدولة الأموية.

ومهما يكن من أمر هذه الفرقة - الخوارج – فإنّها لا تعدو أن تكون إحدى تيارات الفكر الإسلامي وأكثرها خطرا على الدولة الأموية من عهد عليّ (ض) حتّى زوال حكم بني أميّة من سنة 132 هـ.

في هذا الجوّ العقدي والسياسي المشحون بالصراع نشأ شعر الخوارج وهو شعر رسالي، زهدي ثوري جامح يكبر الإنسان الخارجي إكبارا شديدا.

ومن هذا المنطلق فإنّ رصدنا لتجلّيات الذات وعذابات الاغتراب في الخطاب الشعري ودلالته، يأخذ مشروعيته انطلاقا من هذه الفرضية للكشف عن بعض المنافذ المغلقة في المنجز الدلالي على أنّنا سنكتفي في هذا البحث بمنجزين دلاليين، وهما :

## أوّلا: - تجليّات الذات وتداعياتها في شعر الخوارج:

- إنّ ماهية الذات في شعر الخوارج إنّما هي عيّنة عن روح الجماعة ذلك أنّ الشاعر الخارجي هو ملك لمبدأ المجموع فهو لا يعيش لنفسه بل يرهن كيانه لما تحالف عليه الخوارج (لا حكم إلّا لله) فذاته منضوية تحت جناح الجماعة. وبهذه الفلسفة التعبيرية وهذه السلطة التأثيرية- تأثير المبدأ العام على الذات- تتمكن الذات الجماعية من الكشف عن بعدها النفسي وهو ما يحدث أثرا فاعلا في ذهن المتلقي.

ولعلّ تشبّع شعر الخوارج بالحضور المكثّف للذات الشاعرة يعزى إلى أحد سببين وهما:

أ- شعر الخوارج في جلّه يخاطب المشاعر والوجدان دون أن يعمد إلى مخاطبة العقل والمنطق لإعطاء الحجّة المقبولة والبرهان العقلي لما ينادون به.

ب- جلّ الشعراء الخوارج كانوا قادة وزعماء للمذهب الخارجي، فجاء شعرهم خلاصة تجربة ذاتية حيّة بعيدا عن التكلّف والرياء، كما يبدو أنّ أغلب هؤلاء الشعراء كانوا من أعراب البادية، فجاء شعرهم صدى لمزايا البدوي الذي تغلب عليه الصراحة والجرأة مع صفاء في الطبع وصدق في العقيدة

هذا وإنّ تداعيات الذات وتجلّياتها في الشعر الخارجي تفرض حضورها انطلاقا من محمولين وهما:

1 - **المحمول اللغوي الوجداني**: وهو محمول يحيلنا إلى الأثر الجمعي الذي ينبثق من ذات مثقلة بحلم واحد وأمل واحد، وهو التوق للاستشهاد في سبيل الله، فانظر إلى

قول البهلول بن بشر الشيباني[6] وهو يروم الموت والحمام تخلّصا من درن الدنيا وتقرّبا إلى الله إذ يقول ( البسيط):

من كان يكره أن يلقى منيتـه *** فالموت أشهى إلى قلبي من العسل
فلا التقدّم في الهيجاء يعجّلني *** ولا الحذار ينجيني من الأجـل.

إنّ المنجز الدلالي في هذين البيتين يقوم على نظام الثنائيات، وهو نظام تقابلي، فالشاعر يشتهي الموت معرّضا بالآخر الذي يكره هذا الكائن المدلّل عند كلّ شاعر خارجي، لذا نجده مقداما في الهيجاء، إيمانا منه أنّ هذا التقدّم لا يعجّل موته كما أنّ الحذر لا ينجيه من قضاء الله وقدره .

إنّ هذا الشعور يشكّل قاسما مشتركا يوّحد ذوات وقلوب الشعراء الخوارج، فكأنّهم قلب واحد ورجل واحد، وفي هذا المعنى يقول العيزار بن الأخنس [7](الطويل):

ألا ليتني في يوم صفّين لم أوب *** وغودرت في القتلى بصفّـين ثاويـا
وقطّعت آراما وألقيت جثّـة *** وأصبحت ميتا لا أجيب المنـاديا
ولم أر قتل سنبس ولقتلهـم ***أشاب غداة البين مني النواصـيا
ثمانون من حيـي جديلة قتلوا *** على النهر كانوا يخبون العواليا
ينادون لا لا حكـم إلاّ لربّنا ***حنانيك فاغفر حوبنا والمســاوي

إنّ هذه السيولة الشعرية ذات عملة واحدة، فهي تستمد حضورها وتكثّف ذاتها من خلال نفيها ورفضها لذات الآخر، فالشاعر متمسك بمبدأ أصحابه في الإقدام مؤمن حتّى النخاع بفلسفتهم في الحكم.

ولعلّ هذه الدفقة الشعورية ما كانت لتحقّق حضورها، لولا أنّها انبثقت من المحمول اللغوي الوجداني في هذا السياق الأسلوبي الذي يحمل دلالة تعبيرية واحدة تمثّل حلقة الوصل في المسار الشعوري العام، وهو ما يحملنا على القول أنّ تعبير بن

الأخنس عن ذاته الجماعية، ما هو إلاّ تعبير نفسي يكشف عن عميق الأثر في ذهن المتلقي.

## 2- المحمول الاجتماعي والمدني:

لا يختلف اثنان من الباحثين في أنّ جلّ الشعراء الخوارج كانوا قادة وساسة، وهو ما جعلهم يعايشون التجربة الشعرية بصدق، ثمّ أن شعر الخوارج يكاد يقتصر عليهم ويدور حولهم فهو يصف إيمانهم وأحوالهم وأيّامهم، مادحا أو مفتخرا أو هاجيا أو راثيا أو متغزّلا.

يقول عبد الرزاق حسين:(إنّه شعر ذو طابع خاص به، ويصدق عليه القول بالشعر الخارجي لأنّ الشخصية الخارجية متمثلة فيه بجميع جوانبها وشتّى أحوالها)[8]. فالشعراء الخوارج لم يجعلوا الإحساس بالغير مركز شعورهم، ويبدو هذا واضحا في عدم تمييز سمات أعدائهم وخصومهم من أمويين وشيعة وزبيريين، فجميع من عداهم على إطلاقهم كفرة فجرة دون تفريق، وكأنّهم لا يحسّون في شعرهم إلاّ بأنفسهم.

وسواء عرّجنا على الشعر الخارجي بمحموله اللغوي الوجداني، أو بمحموله الاجتماعي المدني، فإنّه يشكّل مرآة تعكس معاناة واحدة وتجسّد خصوصية تعبيرية لرسالة واحدة وهي إقناع الآخر لاستمالته وجدانيا، فانظر إلى قول أبو مرداس بن أدية[9](الطويل):

إلهي هب لي زلفة ووسيـــــلة *** إليك فإنّي قد سئمت من الدهــر
وقد أظهر الجور الولاة وأجمعوا *** على ظلم أهل الحقّ بالغدر والكفر
فيـاربّ لا تسلم ولاتك للـردى *** وأيّدهم ياربّ بالنصر والصـــبر
ويسّر لنا خيرا ولا تحرمـــــنا *** لقاء ذوي الإلحاد في عدد دثـــــر
نكفّ إذا جاشت إلينا بحـورهم *** ولا بمهابيب نحيد عن البـــــتر
ولكنّنا نلقى القنا بنـــــــحورنا ***وبالهام نلقى كلّ أبيض ذي أثــر

إذا جشأت نفس الجبان وهلّلت *** صبرنا ولو كان القيام على الجمر

إنّ المنجز الدلالي في هذه المقطّعة لا يختلف عن المقطّعات السالفة فهو يشكّل خطابا واحدا يقوم على مناجاة الموت وطلبه رفضا لواقع يخالف مذهبهم وقناعتهم، وحتّى من الناحية اللغوية فإنّ حضور الدعاء في النص ما هو إلّا تحريض للمتلقي لتحفيزه على المشاركة الوجدانية.

وعليه فإنّ الخطاب الشعري في المقطوعة السالفة جاء موّزعا بين ثلاث دوال:
الباث: وهو الشاعر المنتج للخطاب (المخاطب).
الآخر: وهو الخصم الموصوف بالجبن والإلحاد والجور.
المتلقي: وهو المستقبل للمنتوج الشعري .

وفي هذا المقام على القارئ أن يتفاعل مع الدفقة الشعورية من خلال انفعاله لمعاناة الشاعر النفسية، سواء حدث هذا التفاعل عن طريق الانحرافات اللغوية كقول الشاعر(أظهر الجور، ضيّعوا الدنيا، ولا تك للردى...)أو بطريق فعل التداعي وما أثارته تلك المعاني في نفس المتلقي، وهو ما أدّى إلى زيادة فاعلية الاندماج الحسي بالجانب الدلالي، وعمل على الكشف عن المعطيات النفسية والذهنية، وهو ما يفسر عمق المساحة التعبيرية في شعر الخوارج كونه يقوم على وظيفة تواصلية هدفها التأثير في الآخر.

إنّ هذا الحضور المكثّف للذات الجماعية في شعر الخوارج في اعتقادنا، يعزى إلى تمسكهم بإنشاء مجتمع مثالي يدعو إلى إعادة ترميم الخلافة الإسلامية وفق نظرية سياسية راشدة، وفي هذا المعنى يقول الشاعر معاذ بن جوين[10](الطويل).

ألا أيّها الشارون قد حان لامرئ *** شرى نفسه لله أن يترجّـــــلا
أقمتم بدار الخاطئين جـــــهالة ***وكلّ امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدّوا على القــوم العـــداة فإنّما *** إقامتكم للذبح رأيا مضـلّلا

ألا فاقصـدوا يا قوم للغاية التي ***إذا ذكرت كانت أبـــرّ وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ***شديد القصيرى درعا غير أعزلا
يعزّ عليّ أن تخـافوا وتطـــردوا *** ولمّـا حرّر المحلين منـــــصلا

فالدعوة إلى الثورة في هذه الأبيات تعطي للذات الجماعية حضورا أقوى، ذلك أنّ واقع الشاعر والجماعة إنّما يشكّلان بنية واحدة للخطاب الجمعي، فذات الشاعر في قوله:(أيّها الشارون، أقمتم بدار الخاطئين، يشتد على القوم، ألا فاقصدوا يا قوم ) تذوب وتندمج مع ذاته كفرد في قوله :( فيالليني فيكم، يعزّ عليّ أن تخافوا )، وهو ما يحملنا على القول إنّ الذات عند الخوارج هي ملكية جماعية، ومن ثمة فإنّ معاناة الشاعر تعني معاناة كلّ الخوارج.

إنّ هذا الشعور الجمعي ممثّلا في تداعيات الذات، وحضورها بكثافة في الشعر الخارجي لهو نابع في اعتقادنا من عدّة عوامل لعلّ أهمّها:

أ- صدق التجربة الشعورية (فشعر الخوارج كان أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي.)[11]

ب- احتفاظ الخوارج بطبعهم البدوي، وعدم ذوبانهم في المدينة المترفة، وأفتح قوسا في هذا العنصر معقّبا على قول أحمد الشايب (إنّ الخوارج احتفظوا بطبعهم البدوي المهذّب ولم تفسدهم تقاليد الحضارة المترفة) وحسبه أن يقول ولم تفسدهم تقاليد التمدّن والعمران.

ت- تفرّغ الشعراء الخوارج للشعر السياسي وعدم الارتزاق به

ث- اضمحلال العصبية القبلية والأجناسية في عقيدتهم المذهبية.

كلّ هذه العوامل جعلت الشعراء الخوارج يجتمعون على قلب رجل واحد إن من حيث صدق الشعور أو قوّة العقيدة أو سلامة الخلق والطبع، وفي هذا المعنى العقدي يعبّر عمران بن حطان عن المرجعية الدينية للذات الجماعية فيقول[12](الطويل):

فنحن بنو الإسلام والله ربّنا *** وأولى عباد الله بالله من شكر

ويكفينا في هذا المقام، ونحن نتقصّى تداعيات الذات في الشعر الخارجي أن نستشهد ببعض المقطّعات من المدوّنة دون إكثار، ومرجع ذلك أنّ الشخصيات الفنية للشعراء الخوارج متشابهة على حدّ تعبير أحمد الشايب (لا تجد بينها فرقا كبيرا في الصياغة، فإذا ينسب شعر أحدهم إلى الآخر جاز على كثير من القرّاء، وقد وقع الأقدمون في ذلك، ولعلّ سببه هو فناء الشعراء في عقيدتهم وتشبّثهم بها فخضعوا لسلطانها راضيين مغتبطين لم يشعلوا بسواها عنها فاتّحد معينهم الأوّل ... وتأثّروا بشعور مشترك وحوادث واحدة.)[13]

هذا المقول يحيلنا إلى أنّ الرؤية الشعرية للشعراء الخوارج ذات مكوّن واحد(إذ أنّها تكون متشابهة عند الجميع لأنّهم يؤمنون بفكر واحد ويقفون منه موقفا واحدا، يفسّرون به الحقائق)[14].

والحقيقة أنّ المحمول اللغوي المشحون بالعواطف والانفعالات كان عاملا رئيسا في الكشف عن تجربة الشاعر الخارجي وهي تجربة مفعمة بالثراء والألم وهو شعور متبادل بين الشاعر والمتلقي، فانظر إلى قول الطرماح بن حكيم وهو يقول[15](المنسرح):

لله درّ الشـــــراة إنّهـــم *** إذا الكرى مال بالطـلى أرّقوا
يرجعون الحنين آونـــــة *** وإن علا ساعة بهم شــهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة *** تكاد عنها الصدور تنــفلق
كيف أرجئ الحياة بعدهم *** وقد مضــى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح عليّ اعتقادهم ***بالفـــوز ممّا يخاف قد وثقوا

لا ريب أنّ هذه المقطوعة كتاب مفتوحة صفحاته على أقصى درجات التأزّم النفسي، ففيها تكثيف شعوري لمعاناة الشاعر الخارجي ذاتيا كدفقة شعورية جماعية غايتها استجلاء التجربة ممثّلة في الموقف الذاتي والجمعي للشاعر، وهو يختزل التجربة الإنسانية مبيّنا موقفها من الظلم و الاستبداد .

فتجسيد الذات لهذا الشعور الإنساني يزيد في تكثيف الدلالة ويعمّقها، ذلك أنّ الشاعر يستعيض عن التعبير بضمير المخاطب (أنا) ويعبّر عن المعنى بضمير الجماعة(نحن) حتّى يكتسب التعبير شرعيته العامة والجماعية، وهو ما يحملنا على القول أنّ الفردانية مغيّبة في الخطاب الشعري الخارجي، وإن وردت فإنّها تعبّر غن الاندماج والذوبان في الجماعة .

وعليه فإنّ التجربة الذاتية تستحيل إلى مشاركة وجدانية جماعية فاعلة يشغل فيها المستوى التعبيري حيّزا واسعا إن على مستوى الوظيفة التواصلية أو الوظيفة الإبلاغية.

## ثانيا_ تجليات الاغتراب في شعر الخوارج :

لعلّ أكثر الناس شعورا بالاغتراب هم الشعراء، ففي تراثنا الشعري القديم نلفي امرأ القيس يخرج من قبيلته مغضوبا عليه بعد أن شبّب بإحدى نساء أبيه، أمّا عنترة العبسي فقد تجرّع مرارة الاغتراب بسبب لونه ونسبه لأمّه الحبشية .

أمّا الشعراء الصعاليك فكان اغترابهم جماعيا تعبيرا منهم عن حالة إنسانية نفسية واجتماعية تعكس رفضهم للواقع الاجتماعي لقبيلتهم.

كما عانى غيرهم من اغترابات متعدّدة حتّى ارتبط بحياتهم، فمن اغتراب الأسر لأبي فراس الحمداني إلى اغتراب الشريف الرضي إلى اغتراب المكان والجسد والنفس لأبي العلاء المعري...وهلّم جرّا.

ومهما تعدّدت أنواع الاغتراب وأشكاله فهو لا يخرج عن حيّزي الزمان والمكان.

1 – الاغتراب الزماني: وفيه يشعر الإنسان بعمق المفارقة بين ما يعتقده هو وما يعتقده معاصروه .

2 – الاغتراب المكاني: إمّا طواعية بحثا عن الرزق أو طلبا للعلم أو كراهية رفضا للاستبداد الفكري أو السياسي أو العقدي كما هي الحال عند الشعراء الخوارج.

أمّا أشدّ أنواع الاغتراب على المرء فهو ما عبّر عنه "أبو حيان التوحيدي" في قوله:(أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه)[16]، ، لاسيّما الشعراء منهم ذلك أنّ الشاعر أكثر الناس عرضة للاغتراب بحكم تركيبته النفسية، فالذي يروم الموت بصدق لا بدّ أنّه بلغ ثمالة الاغتراب عن واقعه الاجتماعي والسياسي والديني، وهذا ما حمل الخوارج على الثورة والتمرد .

فالشاعر الخارجي متميّز عن أقرانه من الشعراء في مسار الشعر العربي القديم، فاغترابه ليس وجوديا، بله اغتراب ديني ذلك أنّه شاعر ساخط على الحاكم الذي ارتضى غير شريعة الله وحكمه، وحادثة التحكيم هي الحكم الفصل في ضبط عقيدته وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن وهب الراسبي [17](الطويل):

نقاتلكم كي تلزموا الحقّ وحده *** ونضربكم حتّى يكون لنا الحكم
فإن تتبعوا حكم الإله يكن لكم *** إذا ما اصطلحنا الحقّ والأمن والسلم
وإلاّ فإنّ المشرفية مخذم *** بأيدي رجال فيهم الدين والعلم

فعبد الله الراسبي الذي انشقّ عن الإمام عليّ (ض) يعلن أنّ قتاله للمسلمين يملك شرعية دينية وهي التي تلزم عليّا بالتوبة والعودة إلى الحقّ، لأنّه حاد عن إرادة الله في الحكم حسب المعتقد الخارجي في تأويل طبيعة الإمامة وكيفيتها، ما جعل الشاعر يعتقد يقينا بمروق الخليفة، وهو ما يؤجّج في نفسه شحنة اغترابية تشعره بأنّ الدين كدستور في عهد الإمام عليّ صار مغيّبا، وبالتالي غريبا، وهو اغتراب ديني منبته قناعة الخوارج بتفسير الأحكام حسب زعمهم العقدي.

والمتلقي لهذه الأبيات يقع ضحية سلطة تأثيرية قويّة جدّا يمارسها الشاعر بغواية على القارئ بما يملكه من وسائل حجاجية تؤهلّه لفرض رأيه، لا سيّما وأنّ آلية الحجاج عند الشعراء تقوم على وتر خطير، وهو الدين الذي طالما ظلّ محافظا على سلطته التأثيرية في كلّ زمان ومكان.

فالشاعر إذن يتّجه إلى الله كسند ليشعر الآخر بتغيّر القيم، وهو نوع من التعويض يمارسه الشاعر للتخفيف من آلام اغترابه، ويتردّد هذا النوع من الشعور عند العيزار بن الأخنس في قوله[18](الطويل):

هم فارقوا في الله من جار حكمه *** وكلّ عن الرحمان أصبح راضيا.

فأشياع عليّ (ض) قد فارقوا حكم الله في اعتقاد العيزار ، ما جعله يشعر بجور الخليفة وهو الظلم الذي يشعر بن الأخنس باستبداد النظام وعدم شرعيته، وفي هذه الحالة يمتزج الاغتراب السياسي بالاغتراب الديني، وحسب الاستبداد أن يكون المحفّز الرئيس لكلّ أشكال الاغتراب.

ولعلّ ما كان يزيد من معاناة الشعراء الخوارج، هو فقدهم لقادتهم الذين باعوا أنفسهم لله، فهذا أبو بلال مرداس بن أدية يقول في الخروج بعد مقتل عبد الله بن وهب [19](الطويل):

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى *** ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحبّ بقاء أو أرجّي سلامـــــة *** وقد قتلوا زيد بن حصين ومالكا
فيا ربّ سلّم نيّتي وبصـــــيرتي *** وهب لي التقى حتّى ألاقي أولئكا

فذهاب الأحبّة يشعر المرء بالحزن لاسيّما إذا كانوا قادة، وهو شعور يوّلد في قلب بن مرداس حزنا واغترابا شديدين فهو غريب من دون قادة الخوارج لذا نجده يناجي ربّه لكي يلحقه بأولئك القادة الصالحين حسب زعمه.

والشاعر في المقطوعة السالفة يشعرنا بنوعين من الاغتراب :

1- اغتراب نفسي: فخوالجه مشحونة بألم الفراق في الدنيا، لذا يترجى الشاعر ربّه أن يلحقه بعبد الله بن وهب الراسبي أملا في لقياه في دار البقاء حيث لا غربة ولا اغتراب.

2- اغتراب ديني: وفيه نوع من المفارقة العقدية التي تبيح دماء المسلمين غير أنّ قناعة الشاعر في قتال معاوية وهو يناجي ربّه تجعل القارئ، يسلّم بأحقيّته في حكم الإباحة وهو ما يشكّل حكما عقديا يخوّل للشاعر الشعور بظلم أشياع معاوية ويزيد وجورهما واستبدادهما .

ويدعّم هذا الرأي ما قاله عبد الله بن وهب الراسبي مخاطبا أتباعه:(فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمان وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا التي الرضا بها والركون إليها والإثارة إيّاها عناء وتبار أثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق، فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالمة أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلّة)[20] .

فالظلم كما يرى عبد الله بن وهب هو سبب شعور الخوارج بالاغتراب، وفي هذا المعنى يقول عمرو بن ذكية الربعي مخاطبا عمر بن عبد العزيز طالبا منه أن يتبع سبيل الرشاد:

قل للمولّى على الإسلام مرتـــــزقا*** وقد يـــرى أنّه رثّ القوى واه
أزرى به معـشـــــــر غذّوه مأكلة *** بنخوة العــزّ والإتراف والـباه
أنّا شرينا بديـــــــن الله أنفســـــنا *** نبغي أمام بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحدّ السيف عن سرف *** كفى لهم بذلـك من زاجـر ناه
فإن قصـدت سبيل الحقّ يا عمـــــر*** أخاك في الله أمثالي وأشبـاهي
وإن لحقت بقوم كنت واحدهـــــم*** في جور سيرتهم فالحكم لله.

فالخليفة أمام خيارين، إمّا اتّباع الحقّ ونيل نصرة الخوارج بالقتال في صفّه أو عدم اتّباعهم، وهو عندهم طريق الجور والظلم الذي يوجب عليهم إشهار السلاح في وجهه.

إنّ هذا الخطاب حتّى وإن شكّل ملمحا من ملامح البطولة في شعر الخوارج، إلاّ أنّه يحيلنا إلى منعرج خطير وهو تغيّر المفاهيم والقيم الدينية عند فئة من المسلمين ما جعلهم يشعرون بالإقصاء والتهميش، وهو ملمح من ملامح الاغتراب الديني موّرى بقناع سياسي وهو ما جعل شعراءهم يسلكون سبيل التضرع إلى الله والشكوى له دفعا لمظالم الحكّام، وهو تمثّل يكشف عن اغتراب هؤلاء المستضعفين الذين لا يملكون آليات التغيير حتّى يصل بهم الأمر إلى أقصى درجات التأزّم النفسي فلا يجدون بدّا من التوجّه إلى الله بالدعاء ومن ذلك قول حبيب بن خدرة الهلالي[21] (الكامل):

يارَبّ إنّهم عصوك وحكّموا ***في الديـن كلّ ملعــن جبّار

يدعو إلى سبل الضلالة والردى***والحقّ أبلج مثل ضـوء نهار

فالشاعر يفوّض أمره لله فيناجيه معلنا ضعفه وعجزه ومنكرا حكم العصاة، لذلك لا يجد حرجا في لعنهم ووصفهم بالضلالة، وبغضّ النظر عن بصيرة الشاعر من عدمها فيما يذهب إليه إلاّ أنّه يشعر المتلقي بأنّه في حكم المظلوم العاجز الضعيف الذي يستعين بالله ليدرأ عنه شعوره بالاغتراب والاستلاب وهو استلاب يتفنّن الشاعر في صناعته ليوهم القارئ بأنّه مهضوم الحقوق كيما يكسبه إلى صفّه. ويتوالد هذا الشعور بالاغتراب من شاعر إلى آخر حتّى يشكّل عندهم ظاهرة موحدة، وهو ما عبّر عنه إحسان عبّاس بوحدة التيارات النفسية[22]، وهي ناتجة عن تأزّمهم النفسي الحاصل عن تقصيرهم في تغيير الحكم والتوق إلى الاستشهاد في سبيل الله.

ولا يختلف عاقلان في أنّ من يروم الموت بلهفة وشوق، لا ريب أنّه يريد العزوف عن الدنيا الدنية بحثا عن الأفضل، وهو الفوز بالجنان السنّية والحياة الأبدية، إذن فرحلة البحث عن الموت ما هي في الحقيقة إلاّ ضرب من الهروب عن هذا الشبح المخيف الذي ضلّ يلاحق الخوارج أينما ثقفهم، إنّه شبح الاغتراب الذي جعل دنياهم ظلاما دامسا، فلا غرو إذن أن نجدهم يمتعضون منها وفي هذا المعنى يقول عطية بن سمر الليثي[23](الطويل):

وحسبي من الدنيا دلاص حصينة***ومغفرها يوما وصدر قناة

وأجرد محبوك السراة مقلـــــص ***شديد أعاليه وعشر شراة

وتتكرّر هذه الصورة نفسها عند سائر الشعراء الخوارج، فهذا شاعر آخر يريد أن يبيع الذي يفنى بالذي يبقى فيقول [24](البسيط):

حتّى أبيع الذي يفنى بآخرة *** تبقى على دين مرداس وطوّاف

وإنّ تكرار هذه الصور في ملامحها الاغترابية لا تحدّ من صدق التجربة الشعرية للشعراء الخوارج لأنّها غير ناتجة عن تقليد نموذج شعري ما، بقدر ما هي تعبير مفعم بالصدق والوفاء لمذهبهم .

وإلى هذا الحدّ يمكننا القول بأنّ اغتراب الشعراء الخوارج لم يكن سلبيا بل كان إيجابيا، لأنّه كان في مجمله نقدا للحياة السياسية في عهد بني أمية، لاسيّما وهو يهاجم عيوب المجتمع ويكشف عورات الدولة الإسلامية .

ولعلّ ما يميزه عن سائر الشعراء هو وحدة التيارات النفسية التي تشعر القارئ بأنّهم رجل واحد وقلب واحد.

على أنّ ما يعتري شعرهم من تكرار يشكّل شعورا مشتركا يعبّر عنه الضمير الجمعي الذي يدلّ على أحادية الموقف عندهم. ولنا أن نقول إنّ اغتراب الخوارج بإمكانه أن يثير نقدا نفسيا واجتماعيا وسياسيا ودينيا، لأنّه كشف واستجلى ما وراء هذه الأقنعة بدلالاتها المختلفة. وهو ما يحملنا على القول، أنّ تجليات الاغتراب في شعر الخوارج تكشف عن خطاب واع يظهر تنوّعا في مستوياته وأشكاله، وحتّى مفهومه كمصطلح فقد تعددت معانيه فكثير من الباحثين حمّلوا هذا المصطلح معنى انعدام السلطة والانخلاع والانفصام عن الذات والاستياء والتذمر والعداء والعزلة وانعدام المغزى في واقع الحياة والإحباط.

ولعلّ الشاعر الخارجي قد رضع من لبان هذه المعاني على اختلافها، غير أنّ مصطلح الاغتراب في سياق العزلة يتكشف بجلاء من خلال عزوفهم عن الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، وهو في رأينا شعور يدلّ على التجرد وعدم قدرة الخوارج على الاندماج النفسي والفكري بالمقاييس العلمية في المجتمع الإسلامي، ما يعني انفصالهم عن ثقافة المجتمع الدينية .

وربّما كان من الطبيعي أن يعيش المسلمون عامة، و الخوارج خاصّة هذه الحالة الاغترابية نتيجة احتدام الحرب بينهم، وهو ما جعل البدو، والموالي من الخوارج يقبلون على الموت بشغف ويسعون إليه بفرحة، لأنه في مثل حالتهم أصبح أملا مرجوا تفرح بنواله القلوب و تسعد الأفئدة فهو عندهم الرجاء الوحيد في الخلاص من دنيا اكفهرّت من حولهم و أنذرت بشرّ... وبذلك أصبحت الحياة عبثا مرهقا يحسن التخفّف منه [25]

و هذا يلخص لنا سبب اغتراب الخوارج، فأحداث الحياة تمرّ بهم غير عابئة، بل وتستفزّ مشاعرهم، والنبوّة ليست منهم والخلافة تقوقعت في قريش، والغنائم التي كانت توزّع عليهم بأمر الدين لم ينلهم منها إلاّ الفتات، مع أنهم جالبوها وتعرضوا للهلاك قتالا في سبيل الله، فلا أقل من أن ينالوا حظّهم و نصيبهم المشروع.

هذه هي الجذور العميقة في وجدان الخوارج، وهي مردّ اغترابهم وعزلتهم وشعورهم بالإحباط.

## الخاتمة:

لعلّنا بعد هذه الرحلة التاريخية والدلالية في شعر الخوارج نكون قد رسمنا بعض النتائج الخاصة لتجلّيات الذات والاغتراب في الخطاب الشعري الخارجي وسنحاول إيجازها في الآتي:

1ـ شعر الخوارج وثيقة تاريخية تؤسّس للمنظومة العقدية والسياسية لمذهب الخوارج.

2 ـ شعر الخوارج شعر مكثّف بمشاعر الاغتراب وهو في جلّه اغتراب ديني.

3 ـ إنّ آلية الحجاج عند الخوارج تقوم على عنصر الدين من خلال رفضهم لحادثة التحكيم .

4 ـ تتداخل أشكال الاغتراب في شعر الخوارج لاسيّما الاغتراب الديني والسياسي والنفسي.

5 ـ يكشف شعر الخوارج عن منعرج خطير جدّا في تغيّر المفاهيم والقيم الدينية عند فئة من المسلمين، ما جعلهم يشعرون بالإقصاء والإبعاد.

6 ـ اغتراب الشعراء الخوارج لم يكن سلبيا، بل كان إيجابيا لأنّه في مجمله كان نقدا للحياة.

7 ـ ما يميز الشعر الخارجي هو وحدة المشاعر النفسية التي تشعر القارئ بأنّهم على قلب رجل واحد.

8 ـ اغتراب الخوارج بإمكانه أن يثير نقدا نفسيا واجتماعيا ودينيا وسياسيا.

9 ـ شعر الخوارج مفعم بالشعور المكثّف للذات الشاعرة.

10 ـ الذات الخارجية ملكية جماعية تستمدّ حضورها في النص الشعري من محمولين اثنين: المحمول اللغوي والمحمول الاجتماعي.

11 ـ إنّ الذات الشاعرة في الخطاب الشعري للخوارج موّزعة على ثلاثة أطراف؛ الباثّ والآخر والمتلقّي.

12 ـ تشكّل الذات الشعرية خرقا دلاليا في الخطاب الخارجي، ذلك أنّها تغادر حيّزها لتذوب في سلطة الجماعة.، كما يشكّل الاغتراب الديني انزياحا وخروجا عن مألوف ما أقرّته الخلافة الإسلامية الراشدة.

## ثبت المصادر والمراجع:


1- معروف نايف: الخوارج في العصر الأموي، دار النفائس، بيروت، ط6 (2006) ص 341 .

2-المرجع نفسه ص343 .

3-ينظر: - أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5 .ص201.إلى ص221.وينظر: مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 35، العدد03 .الأردن:2008، صورة الشراة في شعر الخوارج، أحمد فيلح وعزمي الصالحي، ص ص 569-570.

4- محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، ج3، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1990 .ص270 .

5- المرجع نفسه، ص275.

6- المرجع نفسه، ص277 .

7-إحسان عبّاس، ديوان شعر الخوارج، ص 219

8-إحسان عبّاس، ديوان شعر الخوارج، ص 44.

9-حسين عبد الرزاق: شعر الخوارج-دراسة فنية موضوعية- دار البشير، عمان، الأردن. ط1 .1986، ص86

10-إحسان عبّاس، ديوان شعر الخوارج، ص 65 .

11- المرجع نفسه، ص59.

12-أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 5، ص 204 .

13إحسان عبّاس، شعر الخوارج، ص 183.

14-أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5 . صص209. .

15- المرجع نفسه، ص 210 .

16–إحسان عبّاس: ديوان شعر الخوارج، ص265 .

17- أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ، تحقيق عبد الرحمان بدوي، دار القلم، ط1، بيروت، لبنان، ط1، ص81.

18–إحسان عبّاس :شعر الخوارج، ص43.

بن منظور (أبو الفضل جمال الدّين)، لسان العرب، _بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، 1994. مجلد 9، مادة غرب.

19-إحسان عبّاس :شعر الخوارج، ص45 .

20-الرجع نفسه، ص62 .
21-أبي جعفر جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار المعارف، مصر، ج 5، ص 74 .
22-إحسان عبّاس :شعر الخوارج، ص229 .
23- المرجع نفسه، ص20 .
24-إحسان عبّاس :شعر الخوارج ص 79.
25-المرجع نفسه، ص73.
26- خالد معيوف محمود :الاغتراب الديني، تجلياته في شعر صدر الإسلام، أطروحة دكتوراه، جامعة تكريت، كلية التربية، قسم علوم القرآن، ص 94 .

تاريخ الإيداع:2015/01/25 تاريخ القبول:2015/06/09